فالملأ - إذن - هم أشراف القوم ، وهم - عادة - الذين يزينون للطاغية الاستخفاف بالرعية .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَاسْتَخَفَّ [1] قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف]

وحين يتكلم الحق سبحانه عن فرعون والملأ والقوم ، نجده يبيِّن ويفصل بين الملأ من جهة ، وفرعون من جهة أخرى ، وكذلك يفصل بين الفرعون والملأ من جهة ، والقوم من جهة أخرى .. فلكل طرف من تلك الأطراف الثلاثة أسلوب يعامله الحق سبحانه به .

وهنا يبيِّن لنا الله سبحانه أن الملأ قد اتبعوا أمر فرعون ، هذا الأمر الذى يصفه الحق سبحانه بقوله :

﴿ .. وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) ﴾ [هود]

والرشد يقابله الغيُّ ، وهذا القول يدلنا على أن الملأ من قوم فرعون لم يتدارسوا أمر فرعون بتأنٍّ ، ولم تستقبله عقولهم بالبحث ، وهم لو فعلوا ذلك لما اتبعوا أمر فرعون .

ويبيِّن الحق سبحانه لنا عدم رشد أمر فرعون ، فهو يذكر لنا ما يحدث له يوم القيامة هو وقومه ، فيقول تعالى :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ [2] (٩٨) ﴾

---

(١) خف الحمل : قل ولم يكن ثقيلاً . ومن المجاز : خف عقله : طاش وحمق . ومنه : استخفه : أي : استضعف عقله وسخره وسيَّره على هواه وحمله على الطيش والحمق . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤) ﴾ [الزخرف] [القاموس القويم ١/ ٢٠٠] .

(٢) يقدم قومه : يتقدمهم كما يتقدم الوارد . فأوردهم النار : أدخلهم فيها بكفره وكفرهم .
الورد المورود : المدخل المدخول فيه ، وهو النار . [كلمات القرآن] .

وكلمة «يقدم» هى من مادة «القاف» و«الدال» و«الميم». وعند استخدام هذه المادة فى التعبير قولاً أو كتابة، فهى تدل على الإقبال بالمواجهة؛ فيقال: «قدم فلان» دليل إقباله عليك مواجهة. وإذا قيل: «أقبل فلان» فهذا يعنى الإقبال بشىء من العزم. و«قدم القوم يقدمهم» أى: أنهم يتقدمون فى اتجاه واحد، ومنْ يقودهم يتقدمهم.

ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملأ، والقوم اتبعوا الملأ وفرعون، وما داموا قد اتَّبعوه فى الأولى؛ فلا بد أن يتبعوه فى الآخرة.

ويأتى القرآن بآيات ويُبيِّنها، مثل قول الحق سبحانه:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا[1] (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠)﴾ [مريم]

فالحق سبحانه ينزع من كل جماعة الأشد فتوة وسطوة، ويلقيه فى النار، لأنه أعلم بمن يجب أن يَصْلَى السعير.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا[2] كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا[3] (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ [مريم]

---

(١) جثياً: باركين على ركبهم لشدة الهول. عتياً: عصياناً، أو جراءة أو فجوراً. صلياً: دخولاً أو مقاساة لحرها. [كلمات القرآن].

(٢) واردها: أى: بالغٌ النار، وواصل إليها، فمنهم من يردها ليدخلها، ومنهم من لا يدخلها ويكون وصوله إليها ورؤيتها ليدرك مقدار نعمة الله سبحانه عليه بالنجاة منها. [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠]، وورد فى [كلمات القرآن]: واردها، أى: بالمرور على الصراط الممدود عليها.

(٣) حتم الله الأمر حتماً: أوجبه، وهذا أمر حتم: أى: لازم لا بد منه ولا فكاك عنه. والحتم: القضاء النافذ. قال تعالى: ﴿.. كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١)﴾ [مريم] أى: أن ورود المخاطبين من الكفار النار ليعذبوا فيها هو قضاء نافذ لازم. وقيل: يردها المؤمنون أيضاً ليدركوا مقدار نعمة الله عليهم بالنجاة منها. مقضياً: أى: محكوماً به مفروغاً منه، لا راد له، ولا معقب عليه. [القاموس القويم ١/ ١٤١].

ولم يقل الحق سبحانه: « وإنْ منهم إلاَّ واردُها » .

وإنما قال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم]

وبذلك عمَّم الخطاب للكل ، أو أنه يستحضر الكفار ويترك المؤمنين بمعزل .

وهنا يقول الحق سبحانه عن قوم فرعون:

﴿ .. فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ [1] (٩٨) ﴾ [هود]

وحين تكلم كتاب الله الكريم عن «الورود» ، وهو الكتاب الذى نزل بلسان عربى مبين ، نجد أن الورود يأتى بمعنى الذهاب إلى الماء دون شرب من الماء ، قلت: «وردَ يَردُ وروداً» ، وإن أردت التعبير عن شرب الماء مع الورود ، فقل: «وردَ يردُ وِرْداً» بدليل أن الحق سبحانه يقول هنا:

﴿ .. وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود]

أى: أنهم يشعرون بالبؤس لحظة أن يروا ماء جهنم ويشربون منه .

إذن: فكلمة «الورْد» تطلق على عملية الشرب من الماء ، وقد تطلق على ذات الواردين مثل قوله:

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا [2] (٨٦) ﴾ [مريم]

---

(١) بئس الورد المورود: أى: بئس الموضع الذى يرده الإنسان فيلاقى فيه العذاب الأليم. [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠].

(٢) الورد: الماء أو موضعه ، أو الإبل الواردة على سبيل المجاز. قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) ﴾ [مريم] أى: جماعة يردونها ويدخلونها كما ترد الإبل الماء. [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠].

وقد قال الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى [(١)] فى معلقته :

فَلمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرقاً جِمَامُهُ   وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ الُمتَخيِّمِ [(٢)]

والشاعر هنا يصف الرَّكْب ساعة يرى المياه الزرقاء الخالية من أى شيء يعكرها أو يُكدِّرها ، فوضع القوم عصا الترحال .

وكان الغالب قديماً أن يحمل كل من يسير عصاً فى يده ، مثل موسى عليه السلام حين قال :

﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ [(٣)] (١٨)﴾ [طه]

ويقول الشاعر [(٤)] :

فألقتْ عصاها واستقرَّ بها النَّوَى [(٥)]   كمَا قَرَّ عيناً بالإياب [(٦)] المُسَافِرُ

(١) حكيم الشعراء فى الجاهلية ، من قبيلة مضر ، ولد فى بلاد «مزينة» بنواحى المدينة ، كان أبوه وخاله وابناه كعب وبجير شعراء ، وكذلك أختاه سلمى والخنساء . توفى عام (١٣ ق هـ) . [انظر : الأعلام لخير الدين الزركلى] .

(٢) الجمام : ما اجتمع منه فى البئر والحوض وغيرها . ووضع العصى : كناية عن الإقامة ، لأن المسافرين إذا أقاموا وضعوا عصيهم . والتخيم : ابتناء الخيمة . [راجع : شرح المعلقات السبع للزوزنى - ص ٨٢] . والمعلقة من بحر الطويل .

(٣) هش الشجر يهشه هشاً : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية . قال تعالى : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. (١٨)﴾ [طه] أى : أسقط بعصاى أوراق الأشجار على غنمي لتأكلها .
ومآرب أخرى : أى : حاجات وأغراض كثيرة أخرى كاتقاء ضرر أو غير ذلك . [القاموس القويم ١/ ١٧] بتصرف .

(٤) هو : معقّر بن حمار . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : نوى] .

(٥) النية والنوى : الوجه الذى ينويه المسافر من قرب أو بعد . والنية والنوى جميعاً : البعد . والنوى : الدار . والنوى : التحول من مكان إلى مكان آخر أو من دار إلى دار غيرها . وقد أورد ابن منظور هذا البيت فى اللسان مادة : نوى .

(٦) الإياب : الرجوع والعودة . آب يؤوب : يرجع . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥)﴾ [الغاشية] أى : رجوعهم . والمآب : المرجع ، اسم زمان واسم مكان . [القاموس القويم ١/ ٤٢] .

فساعة رأى الركب المياه زرقاء ، فهذا يعنى أنها مياه غير مكدَّرة .

ونحن نعلم أن المياه لا لون لها ، ولكنها توصف بالزُّرْقة إن كانت خالية من الشوائب ، شديدة الصفاء ، فتنعكس عليها صورة السماء الزرقاء .

والشاعر يصف قومه ساعة أن وصلوا إلى الماء الصافى وتوقفوا وأقاموا فى المكان .

وهكذا نجد أن الورود يعنى الذهاب إلى الماء دون الشرب منه . والورد للماء يُفرح النفس أولاً ، ثم يورده ويرويه ما يشربه منها ، ومن يرد الماء لا شك أنه يعانى من ظمأ يريد أن يرويه ، وحرارة كبد يريد أن يبردها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

وفى هذا تهكم شديد ، لأنهم - قوم فرعون - ساعة يرون الماء يشعرون بقرب رى الظمأ وإبراد الحرارة ، ولكنهم يشربون من ماء جهنم ، فبئس ما يشربون ، فهو يُطمعهم أولاً ، ثم يؤيسهم بعد ذلك .

كما فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ (١) .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

فهم ساعة يسمعون كلمة «يغاثوا» يفهمون أن هناك فرجاً قادماً لهم ، فإذا ما علموا أنه ماء كالمهل يشوى الوجوه ، عانوا من مرارة التهكم .

ولله المثل الأعلى : فأنت قد تجد من يدعوك لأطايب الطعام ، وبعد ذلك تغسل يديك ، فيلح عليك من دعاك إلى تناول الحلوى ، فتستشرف نفسك

(١) كالمهل : مثل دردى الزيت أو كالمذاب من المعادن . [كلمات القرآن] . والمهل : المعدن المذاب والقطران وعكر الزيت المغلى ، والقيح . [القاموس القويم ٢/ ٢٤٢] .

إلى تناول الحلوى ، بينما يكون من دعاك قد أوصى الطباخ أن يخلط الحلوى بنبات «الشطة» فيلتهب جوفك؛ أليس في هذا تهكم شديد ؟!

والحق سبحانه يبيِّن لهم أن الورد إنما جاء لترطيب الكبد ، لكن أكبادكم ستشتعل بما تشربونه من هذا الماء ، وكذلك الطعام الذى يأكله أهل النار.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ[1] (٣٦) ﴾ [الحاقة]

وهكذا تصير النكبة نكبتين.

وبعض الناس قد فهم قول الحق سبحانه:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم]

بمعنى أنهم جميعاً سوف يَردون جهنم.

ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً:

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) ﴾ [مريم]

إذن: فالحق سبحانه يعطى لكل الناس صورة للنار ، فإذا رأى المؤمنون النار وتسعُّرها[2] ، ولم يدخلوها ، عرفوا كيف نجَّتهم كلمة الإيمان منها فيحمدون الله سبحانه وتعالى على النجاة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) الغسلين: غسالة أبدان أهل النار ، أو ما يسيل من جلود أهل النار من القيح وغيره مما تعافه النفس وتكرهه. قال تعالى: ﴿ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) ﴾ [الحاقة]. [القاموس القويم ٢/ ٥٤].

(٢) سعرت النار: اشتعلت ، وأسعرها: أوقدها وهيجها. وسعرها - بالتشديد -: هيجها. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) ﴾ [التكوير] أى: أوقدت بشدة. [القاموس القويم ١/ ٣١٣].

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ[1] (٩٩) ﴾

أى: أن اللعنة قد بقيت لهم ، وما زلنا نحن المسلمين نلعنهم إلى الآن ، ثم يصيرون إلى اللعنة الكبرى ، وهى لعنة يوم القيامة : ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾ والرفد: هو العطاء ، فهل تعد اللعنة فى الآخرة عطاءً ؟

إن هذا تهكم منهم أيضاً ، مثلها مثل قول الحق سبحانه:

﴿ .. وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود]

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ[2] (١٠٠) ﴾

وقد أهلك الحق سبحانه تلك القرى بالعذاب ؛ لأنها كذَّبت أنبياءها. والخطاب موجَّه لرسول الله ﷺ لتثبيت فؤاده ، والحق سبحانه إنما يبيِّن له أن الكافرين لن يكونوا بمنجّى من العذاب ؛ كما أخذ الله سبحانه الأمم السابقة الكافرة بالعذاب.

وقول الحق سبحانه:

---

(١) رفده يرفده رفداً: أعطاه وأعانه. والرفد: العطاء والمعونة. قال تعالى: ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾ [هود] أى: العطاء المعطى لهم ، وهو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا والآخرة ، وسمَّى اللعنة رفداً تهكماً وسخرية. [القاموس القويم ١/ ٢٧٠].

(٢) قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) ﴾ [هود] أى: منها باق ، ومنها هالك. وقال تعالى: ﴿ .. حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) ﴾ [الأنبياء] أى: جعلناهم كالزرع المحصود ، أى: أهلكناهم. [القاموس القويم ١/ ١٥٦].

يتطلب أن نفرِّق بين المعنى الشائع عن القصة ، والمعنى الحقيقى لها ، فبعض الناس يقول: إن القرآن فيه قصص ، والقصص عادة تمتلىء بالتوسع ، وتوضع فيها أحداث خيالية من أجل الحبكة.

ولهؤلاء نقول: أنتم لم تفهموا معنى كلمة «القصة» [1] فى اللغة العربية ، لأنها تعنى - فى لغتنا - الالتزام الحرفى بما كان فيها من أحداث ، فهى مأخوذة من كلمة: «قصّ [2] الأثر» ، ومن يقص الأثر إنما يتتبع مواقع الأقدام إلى أن يصل إلى الشىء المراد.

إذن: فقصص [3] القرآن يتقصى الحقائق ولا يقول غيرها ،أما ما اصطُلح عليه فى عرف العامة أنه قصص ، بما فى تلك القصص من خيالات وعناصر مشوقة ، فهذا ما يُسمَّى - لغوياً - بالروايات ، ولا يُعتبر قصصاً.

وقصص الإهلاك للأمم التى كفرت إنما هو عبرة لمن لا يعتبر ، والناس تعلم أن ما رواه القرآن من قصص هو واقع تدل عليه آثار الحضارات التى اندثرت ، وبقيت منها بقايا أحجار ونقوش على المقابر.

---

(١) قص الكلام أو الأخبار ، يقصها قصاً وقصصاً: تتبعها ورواها وحكاها . قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص] أى: قص عليه أخباره وحدَّثه بها. وقال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ .. ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء] أى: ورسلاً ذكرنا لك أخبارهم ، ورسلاً لم نذكر لك أخبارهم. [القاموس القويم ٢/ ١٢٠].

(٢) قص الأثر قصصاً: تتبعه. ومنه قوله: ﴿ .. فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف] أى: يتتبعان آثارهما تتبعاً. [القاموس القويم ٢/ ١٢٠].

(٣) القصص : مصدر يطلق على ما يروى من الأخبار . قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ .. ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف] ، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف]. وقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف] . [القاموس القويم ٢/ ١٢٠].

ونحن نجد فى آثار الحضارات السابقة ما هو قائم من بقايا أعمدة ونقوش ، ومنها ما هو مُحطَّم.

ولذلك يقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

أى : أنكم تشاهدون من الآثار ما هو قائم وما هو حطيم.

ويقول الحق سبحانه عن تلك القرى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ[1] (١٠١) ﴾

ويبيِّن الحق سبحانه هنا أنه حين أخذ تلك الأقوام بالعذاب لم يظلمهم ؛ لأن معنى الظلم أن يكون لإنسانٍ الحق ، فتسلبه هذا الحق.

وفى واقع الأمر أن تلك الأمم التى كفرت وأخذها الله بالعذاب ، هى التى ظلمت نفسها بالشرك ، وكذَّبت تلك الأقوام الرسل الذين جاءوا وفى يد كل منهم دليل الصدق وأمارات الرسالة.

وهكذا ظلم هؤلاء الكفار أنفسهم ؛ لذلك لا بد أن نعلم أن الحق سبحانه مُنزَّه عن أن يظلم أحداً.

---

(١) التتبيب : الإهلاك والتخسير . والتباب : الهلاك . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) ﴾ [غافر]. وتبَّبه تتبيباً : أهلكه . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) ﴾ [هود]. [القاموس القويم ٩٦/١].

وهم حين أشركوا بالله - تعالى - آلهة أخرى ، لماذا لم تتحرك تلك الآلهة المزعومة وتتدخل لتحمى مَنْ آمنوا بها ؟!

ويخبرنا الحق سبحانه أن الحجارة التى عبدوها تلعنهم ، وهم فى النار ، وهذه الأحجار تكون وقوداً للنار .

والحق سبحانه يقول عن النار :

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ [1] .. (٢٤)﴾ [البقرة]

وهؤلاء الذين عبدوا واحداً من الناس أو بعضاً من الأصنام ، إنما تجنَّوا ، بالجهل على هذا الإنسان الذى عبدوه أو تلك الأحجار التى صلَّوا لها أو قدَّسوها .

والشاعر المسلم تأمل غار حراء وغار ثور - وكلاهما من الأحجار - فوجد أن غار حراء قد شهد نزول الوحى على الرسول ﷺ ، وغار ثور حمى رسول الله ﷺ حين اختفى فيه ومعه الصديق أبو بكر فى أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة ، فتخيل الشاعر أن غار ثور قد حسد غار حراء وقال :

كَمْ حَسَدْنَا حِراءَ حينَ يَرى الرُّوحَ ... أميناً يَغْـزُوكَ بالأنْـوَارِ
فَـحِـراءٌ وثَـورٌ صَـارَا سَـواءً ... بِهما تَشفَعْ لأمَّة الأحْجَارِ

فغار حراء شهد جبريل عليه السلام وهو يهبط بالنور على محمد ﷺ ، لكن غار ثور نال أيضاً الشرف لحمايته الرسول فى الهجرة .

---

(١) الوقود : ما تشتعل به النار من حطب وغيره . قال تعالى : ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥)﴾ [البروج] أى : ذات الحطب الذى يلقى فيها ليزيدها اشتعالاً ؛ وذلك يدل على حرص الكفار القاعدين حولها على زيادة اشتعالها ليعذبوا بها المؤمنين أشد العذاب - كما حدث فى قصة أصحاب الأخدود - ولكن النار فى الآخرة يكون وقودها الناس والحجارة ، والمراد بالناس هنا : الكفار والعصاة الذين يكون مصيرهم إلى النار . قال تعالى : ﴿.. وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم ٢/ ٣٤٨] بتصرف .

ويقول الشاعر على لسان الأحجار:

عَبَدُونا ونَحْنُ أعْبَدُ لله ... منَ القائمينَ بالأسْحَار[1]

قَدْ تَجنَّوا جهْلاً كمَا قَدْ تَجنَّوا ... علَى ابنِ مَرْيَمَ والحوَارى[2]

للمُغَالى جَزَاؤهُ والمُغَالَى فيه ... تُنجِيه رَحْمَةُ الغَفَّار

وهكذا لا تُغنى عنهم آلهتهم المعبودة شيئاً سواء أكانت بشراً أم حجارة ، لم تُغْن عنهم شيئاً ولم ترفع عنهم العذاب الذى تلقوه عقاباً فى الدنيا وسعيراً فى الآخرة ، وإذا كانوا قد دعوهم من دون الله فى الدنيا ، فحين جاء العذاب لم تتقدم تلك الآلهة لتحميهم من العذاب.

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. ومَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) ﴾ [هود]

أى: أن تخلّى تلك الآلهة التى أشركوها مع الله تعالى أو عبدوها من دون الله .. هذا التخلى يزيدهم ألماً وإهلاكاً نفسياً وتخسيراً ، لأن التتبيب هو القطع والهلاك.

والحق سبحانه يقول:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ[3] (١) ﴾ [المسد]

---

(١) الأسحار: جمع السحر. بفتح السين والحاء. وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. قال تعالى: ﴿ .. والْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧) ﴾ [آل عمران] ، وقال: ﴿ وبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]. [القاموس القويم ١/ ٣٠٥].

(٢) الحوارى: هم الحواريون ، وهم الخلصاء والأصفياء للأنبياء. قال تعالى: ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ .. (٥٢) ﴾ [آل عمران] والحوارى: الخالص النقى من كل شىء. [القاموس القويم ١/ ١٧٧].

(٣) تب يتب تباً وتباباً: خسر وهلك. قال تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ [المسد] وهو دعاء عليه بالخسران والهلاك. ودعا عليه أولاً بأن تهلك يداه لأنهما آلة البطش والإيذاء. [القاموس القويم ١/ ٩٦].

كذلك الأخذ الذى أخذ الله به القرى التى كذَّبت أنبياءها.

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ[1] شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

أى: أن الأخذ الذى أخذ به الله القرى الكافرة، إنما هو مثل حى لكل من يكفر.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ[2] ﴿٥﴾﴾ [الفجر]

أى: أن الحق سبحانه يقسم لعل كل صاحب عقل يستوعب ضرورة الإيمان، ويضرب الأمثلة بالقوم الذين جاءهم الأخذ بالعذاب، فيقول سبحانه:

---

(١) الأليم: المؤلم شديد الإيلام والوجع. قال تعالى: ﴿.. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة]. والألم: الوجع الشديد. [القاموس القويم ١/ ٢٦] بتصرف.

(٢) والفجر: قسم من الله تعالى بالوقت المعروف (وقت الفجر).

وليال عشر: العشر الأول من ذى الحجة.

والشفع والوتر: يوم النحر، ويوم عرفة.

والليل إذا يسر: إذا يمضى ويذهب أو يُسار فيه.

هل فى ذلك: أى: فى المذكور الذى أقسمنا به.

قسم لذى حجر؟: مقسم به حقيق بالتعظيم لدى العقلاء - نعم - (وجواب القسم) لنعذبن الكافرين. [كلمات القرآن] للشيخ حسنين محمد مخلوف.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [(١)] ۝ ﴾ [الفجر]

فهو سبحانه قد أخذ كل هؤلاء أخذ العزيز المقتدر.

وقوله سبحانه هنا:

﴿ وَكَذَلِكَ .. (١٠٢) ﴾ [هود]

أى: مثل الأخذ الذى أخذتْ به القرى التى كذَّبت رسلها، فظلمت نفسها.

والأخذ هنا عقاب على العمل، بدليل أنه أنجى شعيباً عليه السلام وأخذ قومه بسبب ظلمهم، فالذات الإنسانية بريئة، ولكن الفعل هو الذى يستحق العقاب.

ومثال ذلك: نجده فى قصة نوح عليه السلام حين قال له الحق سبحانه:

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ..(٤٦) ﴾ [هود]

فالذى وضع ابن نوح فى هذا الموضع هو أن عمله غير صالح؛ لذلك فلا يقولن نوح: إنه ابنى.

(١) بعاد: قوم هود، سُمُّوا باسم أبيهم.
إرمَ: هو اسم جدهم وبه سميت القبيلة.
ذات العماد: الشدة، أو الأبنية الرفيعة المحكمة بالعَمَد.
جابوا الصخر: قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم.
ذى الأوتاد: الجيوش الكثيرة التى تشد ملكه.
سوط عذاب: عذاباً شديداً مؤلماً دائماً.
إن ربك لبالمرصاد: يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها. [كلمات القرآن].

فليس الإهلاك بعلّة الذات والدم والقرابة ، بل الإهلاك بعلة العمل ، فأنت لا تكره شخصاً يشرب الخمر لذاته ، وإنما تكرهه لعمله ، ونحن نعلم أن البنوة للأنبياء ليست بنوة الذوات ، وإنما بنوة الأعمال .

وكذلك نجد الحق سبحانه ينبه إبراهيم عليه السلام ألا يدعو لكل ذريته ، فحين كرَّم الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام وقال:

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا [1] .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

جاء الطلب والدعاء من إبراهيم عليه السلام لله تعالى:

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي [2] .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن تمتد الإمامة إلى ذريته أيضاً ، فجاء الرد من الله سبحانه:

﴿ .. لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وظلت هذه القضية في بؤرة شعور إبراهيم عليه السلام ، وعلم تماماً أن البنوَّة للأنبياء ليست بنوة ذوات ، بل هي بنوة أعمال .

---

(١) قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] أي: قدوة يقتدي بك الناس . ويقول تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ .. (٧١) ﴾ [الإسراء] أي: برسولهم فيقال: يا أتباع إبراهيم ، وأمة موسى ، ويا أمة محمد - أو بكتابهم ، فيقال: يا أمة التوراة ، ويا أمة الإنجيل ، ويا أمة القرآن . [القاموس القويم ١/ ٣٢].

(٢) الذرية : للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث من نسل الإنسان . قال تعالى: ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ .. (٢٦٦) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٦) ﴾ [الحديد] وقال تعالى: ﴿ .. وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) ﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ .. (١٢٨) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. (٧٤) ﴾ [الفرقان] بالجمع ، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ .. (٨٧) ﴾ [الأنعام] بالجمع ، ورسمت بغير ألف في المصحف . وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم ١/ ٢٤٢] بتصرف .

ولذلك نجد دعاء إبراهيم عليه السلام حين نزل بأهله فى وادٍ غير ذى زرع ، وقال :

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ .. (١٢٦)﴾ [البقرة]

وهنا انتبه إبراهيم عليه السلام وأضاف :

﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم .. (١٢٦)﴾ [البقرة]

فجاء الرد من الحق سبحانه موضحاً خطأ القياس؛ لأن الرزق عطاء ربوبية يستوى فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى؛ فلا تخلط بين عطاء الربوبية (١) وعطاء الألوهية ؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوبية رزق ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ..وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ [البقرة]

فأنت يا إبراهيم دعوتَ برزق الأهل بالثمرات لمن آمن ، لأن بؤرة شعورك تعى الدرس ، لكن هناك فرقاً بين عطاء الألوهية فى التكليف ، وعطاء الربوبية فى الرزق ، فمن كفر سيرزقه ربه ، ويمتعه قليلاً ثم يكون له حساب آخر .

إذن : فأخْذُ الحق سبحانه للظالمين بكفرهم هو عنف التناول لمخالف ، وتختلف قوة الأخذ بقوة الآخذ ، فإذا كان الآخذ هو الله سبحانه ، فهو أخْذ عزيز مقتدر .

وهو أخذ لمن ظلموا أنفسهم بقمة الظلم وهو الكفر ، وإن كان الظلم لحقوق الآخرين فهو فسق ، وأيضاً ظلم النفس فسق؛ لأن الحق سبحانه حين يُحرِّم عليك أن تظلم غيرك فهو قد حرَّم عليك أيضاً ظلم نفسك .

(١) عطاء الربوبية عام ، وعطاء الألوهية خاص ، فالعطاء العام لكل مخلوق ، والعطاء الخاص لأهل التكليف عن الإيمان السخى واليقين النقى . من حكم الشيخ .

ويصف الحق سبحانه أخذه للظالمين بقوله :

﴿ .. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]

أى : أن أخذه موجع على قدر طلاقة قدرته سبحانه .

وهَبْ أن إنساناً أساء إلى إنسان ، فالحق سبحانه أعطى هذا الإنسان أن يرد السيئة بسيئة ، حتى لا تتراكم الانفعالات وتزداد .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم[1] بِهِ .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

حتى لا تبيت انفعالاتك عندك قهراً ، ولكن من كان لديه قوة ضبط النزوع فعليه أن ينظر فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ[2] .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

إذن : فإما أن ترد السيئة بعقاب مماثل لها ، وإما أن تكظم غيظك ، أى : لا تُترجم غيظك إلى عمل نزوعى ، وإما أن ترتقى إلى الدرجة الأعلى وهى أن تعفو ؛ لأن الله تعالى يحب من يحسن بالعفو[3] .

---

(١) عاقبه عقاباً : جازاه سوءاً بما فعل . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل] .
والعقاب والمعاقبة : إيقاع الجزاء على المذنب . قال تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت] . [القاموس القويم ٢ / ٢٩] .

(٢) الكاظمين الغيظ : الحابسين غيظهم فى قلوبهم . [كلمات القرآن] . وكظم الغيظ : إمساكه وحبسه فى النفس والصبر عليه . [القاموس القويم ٢ / ١٦٣] .

(٣) يقول الله سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران] .
ويقول الحق سبحانه أيضاً : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت] .

ولذلك حين سألوا الحسن البصرى : كيف يُحسِن الإنسان إلى من أساء إليه ؟

أجاب: إذا أساء إليك عبد ، ألاَ يُغضب ذلك ربه منه ؟ قالوا: نعم. قال: وحين يغضب الله من الذى أساء إليك ؛ ألا يقف إلى جانبك ؟ أفلا تحسِن إلى من جعل الله يقف إلى جانبك ؟

ولهذا السبب يُروى عن أحد الصالحين [1] أنه سمع أن شخصاً اغتابه ؛ فأهدى إليه - مع خادمه - طبقاً من بواكير [2] الرطب ، وتعجب الخادم متسائلاً: لماذا تهديه الرطب وقد اغتابك ؟

قال العارف بالله: بلِّغْهُ شكرى وامتنانى لأنه تصدَّق علىَّ بحسناته عندما اغتابنى ، وحسناته - بلا شك - أنفَسُ من هذا الرطب.

ولذلك يقال: إن الذى يعفو أذكى فهماً ممن عاقب ، لأن الذى يعاقب إنما يعاقب بقوته ؛ والذى يعفو فهو الذى يترك العقاب لقوة الله تعالى، وهى قوة لا متناهية.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ [3] وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾

[هود]

---

(١) هو الحسن البصرى ، روى أن رجلاً قال له : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك هديت إلىَّ من حسناتك فاردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام . أورده الغزالى فى الإحياء (٣/ ١٥٤) .

(٢) البواكير : جمع باكور أو باكورة، وهى أول ما يُدرك من الثمر. وهى أيضاً المعجَّل من كل شىء. [المعجم الوسيط : مادة (ب ك ر)] بتصرف.

(٣) القرى: جمع قرية وهى البلدة الكبيرة وتكون أقل من المدينة، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية. قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] أى: أهل القرية، مجاز مرسل علاقته المحلية. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد] والمراد: أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجوك. وقوله تعالى: ﴿ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ .. (١٠٢) ﴾ [هود] أى: أخذ أهلها وهم ظالمون. [القاموس القويم : مادة (ق ر ى)].

أى: أخذٌ موجعٌ على قدر قوة الله سبحانه ؛ وهو أخذ شديد ؛ لأن الشدة تعنى: جمع الشىء إلى الشىء بحيث يصعب انفكاكه ؛ أو أن تجمع شيئين معاً وتقبضهما بحيث يصعب تحلل أى منهما عن الآخر.

وهذه أقوى غاية القوة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ(١) لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ(٢) ﴿١٠٣﴾ ﴾

من يخاف عذاب الآخرة ، فإن هذه الآيات التى تخبر عن الذى حدث للأمم السابقة ، إنما تلفته إلى ضرورة الإيمان بأن الله سبحانه يحاسب كل إنسان على الإيمان وعلى العمل.

ومن يسمع لقصص الأقوام السابقة ؛ ويعتبر بما جاء فيها ؛ وينتفع بالخبرة التى جاءت منها ؛ فهو صاحب بصيرة نافذة ؛ فكل ما حدث للأقوام السابقة آيات ملفتة.

ولذلك يقال: «إن لكل آية مواليد ؛ هى العبر بالآيات» ومن لا يؤمن فهو لن يعتبر ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه:

---

(١) مجموع: اسم مفعول من جمع. والأمر الجامع: الأمر العظيم الذى يجتمع الناس له. والجامع: اسم فاعل من جمع، وهو من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النور] [القاموس القويم: مادة (ج م ع)].

(٢) مشهود: اسم مفعول، قال تعالى: ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [هود] أى: حضره الناس، وشاهدوا هوله أو حضرته ملائكة العذاب، وقوله: ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء] أى: إن قرآن الفجر تشهده الملائكة وتسجل ثوابه. ومشهد: اسم مكان، واسم زمان ومصدر ميمى، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [مريم] [القاموس القويم : بتصرف ص ٣٥٩ جـ١]

﴿ وَكَأَيِّن (١) مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (٢) (١٠٥) ﴾ [يوسف]

إذن: فقد شاء الحق سبحانه أن يلفتنا بالآيات لنعتبر بها ونكون من أولى الألباب[٣] ؛ فلا ندخل فى دائرة من لا يخافون العذاب ؛ أولئك الذين يتلقّون العذاب خزياً فى الدنيا وجحيماً فى الآخرة ؛ وعذاب الآخرة لا نهاية له ؛ والفضيحة فيه أمام كل الخلق.

لذلك قال الحق سبحانه:

﴿ .. ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) ﴾ [هود]

أى: أن الفضيحة فى هذا اليوم تكون مشهودة من كل البشر ؛ من لدن آدم إلى آخر البشر ؛ لذلك تكون فضيحة مدوية أمام من يعرفهم الإنسان ؛ وأمام من لا يعرفهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ .. (١٠٣) ﴾ [هود]

وكلمة «مجموع» تقتضى وجود «جامع» ؛ و«المجموع» يتناسب مع قدرة «الجامع» ؛ فما بالنا والجامع هو الحق الخالق لكل الخلق سبحانه وتعالى.

ولا يجتمع الخلق يومها عن غفلة ؛ بل يجتمعون وكلهم انتباه ؛ فالحق سبحانه يقول:

---

(١) ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ .. (١٠٥) ﴾ [يوسف]: أى: كم من آية، أو كثير من الآيات. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

(٢) معرضون: اسم فاعل من «أعرض»، وأعرض عن الشىء: ولَّى منصرفاً عنه غير راغب فيه. قال تعالى: ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ .. (٨٣) ﴾ [الإسراء]. [القاموس القويم: مادة: (ع ر ض)].

(٣) الألباب: جمع لب. وهو العقل. وقد وردت فى القرآن ١٦ مرة. يقول تعالى: ﴿ .. إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٩) ﴾ [الرعد].

﴿ .. إنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

وهنا يقول سبحانه :

﴿ .. وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) ﴾ [هود]

أى: أن كل الخلق سيشهدون هذا الفضح المخزى لمن لم يعتبر بالآيات.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك فى ميعاد هذا اليوم:

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ[1] (١٠٤) ﴾

وهكذا نعلم أن تأخر مجىء يوم القيامة ؛ لا يعنى أنه لن يأتى ؛ بل سوف يـأتى - لا محـالة- ولكن لكل حدث مـيعـاد ميلاد ، ولكم فى تتابع مواليدكم ما يجعلكم تثقون بأن مواليد الأحداث إنما يحددها الله.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ .. (١٠٤) ﴾ [هود]

يتطلب أن نعرف أن كلمـة «الأجل» تطلق مرة على مدة عـمر الكائن من لحظة ميلاده إلى لحظة نهايته.

---

(١) معدود: اسم مـفعول من الفعل (عـدّ). قال تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ..(٨٠) ﴾ [البقرة] أى: مـحسوبة قليلة، هى أيام شهر رمـضان. وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) ﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) ﴾ [مريم]. والأجل: مدة الشىء وغـاية الوقت ووقت الحياة أو وقت الدَّين أو وقت الموت. والمـراد به هنا يوم القيامـة. [القاموس القويم: (مـادة ع د د) ، و(مادة أ ج ل)] بتصرف.

والحق سبحانه يقول:

﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ [١] (٣٨) ﴾ [الرعد]

وتطلق كلمة «الأجل» مرة أخرى على لحظة النهاية وحدها، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ ..فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ [٢] (٣٤) ﴾[الأعراف]

ولنعرف جميعاً أن كل أجل - وإن طال - فهو معدود، وكل معدود قليل مهما بدا كثيراً ؛لذلك فَلْنَقُلْ أن كل معدود قليل، ما دُمْنَا قادرين على إحصائه.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ [٣] وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾

(١) الكتاب: له عدة معان، منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والرسالة، ومصدر كتب، ويسمى به ما كتب وسجل في صحف، ومصدر كاتب. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ .. (٢٨) ﴾ [النمل] . وقال تعالى: ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] أي: في حكمه وتقديره أو في القرآن الكريم في آيات المواريث. وقال تعالى: ﴿ لَّوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ .. (٦٨) ﴾ [الأنفال] أي: ولولا قضاء من الله من قبل سجله سبحانه عنده؛ فلا تغيير له، وهو إباحة الفداء. وقال تعالى: ﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾ [الرعد] أي: موعد مكتوب مسجل عند الله. وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ [النساء] أي: فرضاً مسجلاً عنده سبحانه، كل صلاة في وقت وفي ميعاد محدد معين. [القاموس القويم: مادة (ك ت ب)] بتصرف.

(٢) تأخر واستأخر: ضد تقدم. قال تعالى: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ [سبأ] أي: لا تتأخرون ولا تطلبون التأخير ولا التأجيل، ولا تتقدمون لأنه محدد بوقت معلوم يستحيل تقديمه أو تأخيره. [القاموس القويم : مادة (أ خ ر)].

(٣) شقي شقاً وشقاءً وشقاوة: ساءت حالته المادية أو المعنوية، فهو شقيٌّ. واسم التفضيل: أشقى. قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا .. (١٠٦) ﴾ [المؤمنون] أي: حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس. والشقي: المحروم من الخير. قال تعالى: ﴿ .. وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) ﴾ [مريم] ، أي: لم يسبق لي أن كنت محروماً من الخير حين أدعوك. [القاموس القويم: مادة (ش ق ي)].

وهنا جمع الحق سبحانه جماعة فى حكم واحد ، فقوله تعالى :

﴿ لا تكلّمُ نفسٌ .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يعني: لا تتكلم أى نفس[1] إلا بإذن الله ، وقد كانوا يتكلمون فى الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التى منحهم إياها الله سبحانه حين أخضع لهم جوارحهم.

وجعل الحق سبحانه الجوارح مؤتمرة بأمر الإنسان ؛ وشاء سبحانه أن يجعل بعضاً من خلقه نماذج لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح؛ فتجد الأخرس الذى لا يستطيع الكلام ؛ وتجد المشلول الذى لا يستطيع الحركة ؛ وتجد الأعمى الذى لا يبصر ، وغير ذلك..

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هى أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من الله تعالى ؛ وليست مسألة ذاتية فيهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يبيِّن لنا سبحانه حقيقة تسخير الجوارح لطاعتنا فى الدنيا ، فهى ترضخ لإرادتنا ؛ لأنه سبحانه شاء أن يسخرها لأوامرنا ولانفعالاتنا ، ولا أحد فينا يتكلم إلا فى إطار الإذن العام للإرادة أن تنفعل لها الجوارح.

وقد يسلب الله سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارح للإرادة ، فتجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ﴾ [النبأ]

---

(١) النفس: الروح وذات الشيء وحقيقته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ .. (١٨٩) ﴾ [الأعراف] هى نفس آدم عليه السلام، وقوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي .. (١١٦) ﴾ [المائدة] أى: ما أستره فى ضميرى، وقوله : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي .. (٥٣) ﴾ [يوسف] أى: ذاتى وقوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا .. (٧٢) ﴾ [البقرة] أى: إنساناً والنفس لها حالات، فتكون أمّارة، وتكون لوّامة، وتكون مطمئنة وراضية، وترتفع درجتها لتكون مرضية قد رضى الله عنها وأرضاها، وقوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ .. (٢٨) ﴾ [آل عمران] أى: غضبه [القاموس القويم ص ٢٧٨ جـ ٢]

ويقول الحق عز وجل فى آية أخرى:

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) ﴾ [الصافات]

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾ [المرسلات]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ [١] عَن نَّفْسِهَا .. (١١١) ﴾ [النحل]

وفى موضع آخر يقول سبحانه:

﴿ وَقِفُوهُمْ [٢] إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

وهكذا قد يُخيَّل للبعض أن هناك آيات تناقض بعضها ؛ فهناك آيات تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفى القدرة على الكلام.

وأقول: يجب أن نفهم أن الكلام الذى سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم القيامة هو الكلام المجدى النافع [٣] ، وسيتكلم البعض كلام السفسطة الذى لا يفيد ، مثل لومهم بعضهم البعض ؛ وذكره لنا القرآن فى قوله سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا [٤] مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩) ﴾ [فصلت]

---

(١) جادل: خاصم بالحق، وبالباطل، واستعمل فى الباطل فى قوله تعالى: ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٩) ﴾ [النساء] ، واستعمل فى الحق فى قوله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] ، وقد نهى الله حجاج بيته عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم. قال تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .. (١٩٧) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم: مادة (ج د ل)].

(٢) قفوهم: احبسوهم فى موقف الحساب. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

(٣) أى: أنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض، فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا، وهذا كما تقول للذى يخاطبك كثيراً، وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشىء، وما نطقت بشىء، فسمى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤١٧).

(٤) أضل فلان غيره: أوقعه فى الضلال. والضلال: النسيان والضياع. قال تعالى: ﴿ .. وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾ [يونس] أى: غاب عنهم ما عبدوه.وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٤) ﴾ [الكهف] أى: ضاع عملهم ولم يحقق الرجاء منه، أو لم يجدوا ثواباً يوم القيامة. [القاموس القويم: مادة (ض ل ل)] بتصرف.